العنصر الذّاتيّ [في اللّغة]

The subjective element [of the language]

لـ: ميشال بريال Michel Bréal

ترجمة: د.مريم البادي Maryam ALBADI

جامعة نزوى، سلطنة عُمان، mariamalbadi80@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2020/07/16 تاريخ المراجعة: 2020/09/15 تاريخ النشر: 2020/12/31

ملخص باللغة العربية:

من الدّارج في دراسات لسانيّة عربيّة وغير عربيّة، عديدة فيما اطّلعنا، نسبة فكرة الذاتيّة في اللّغة إلى عالم اللسانيّات الفرنسي اميل بنڤنيست Emile Benveniste (1902-1976)، كما يشيع في تلك الدراسات الادعاء بريادة بنڤنيست في التنبيه إلى أهميّة تناول مسألة الذاتيّة ضمن دراسات اللّغة. ولهذا الأمر ما يبرّره؛ لا سيما بالنّظر في إسهامات بنڤنيست البارزة في اللّسانيّات عمومًا، وفي لسانيّات التّلفّظ على نحوٍ خاص؛ وهو ما لا يدع عندنا مجالًا للشكّ في تأثيره البالغ في جيل من اللّسانيين بعده. غير أنّ المقال الذي نترجمه هنا يسعى لتقويض فكرة ريادة بنڤنيست في تناول مسألة الذّاتيّة في اللّغة؛ إذ سنرى أنّ الأسس لذاتيّة بنڤنيست سبق أن طرحها العالم اللّغويّ ميشال بريال Michel Bréal (1832-1915) (ضمن جهوده في علم الدّلالة، وقد ظهرت في مقاله الذي بين أيدينا، والذي نشره ضمن كتابه "بحث في علم الدّلالة" (Essai de Sémantique) في عام 1897. الأمر الذي نخلص منه إلى أنّ بريال تناول هذه الأسس قبل حوالي نصف قرن -على الأقل- من ظهور مقالات بنڤنيست المتعلّقة بلسانيّات التّلفّظ (1966، 1970، 1974).

كلمات مفاتيح: ذاتيّة؛ تلفّظ؛ لسانيّات؛ ميشال بريال؛ اميل بنڤنيست.

Abstract:

In many Arabic and non-Arabic linguistic studies, it is common to ascribe the idea of subjectivity in language to the French linguist Emile Benveniste (1902-1976), and it is also common in these studies to claim Benveniste's leadership in stressing the importance of addressing the issue of subjectivity in language studies. This is justified. In particular, by examining Benveniste's outstanding contributions to linguistics in general, and articulation linguistics in particular; This leaves us in

no doubt as to his profound influence on a generation of linguists after him. However, the article we are translating here seeks to undermine Benveniste's idea of leadership by addressing the issue of subjectivity in language. As we will see, the foundations of a benign subjectivity were previously put forward by the linguist Michel Bréal (1832-1915) as part of his semantic efforts, and they appeared in his article in our hands, which he published in his book Essay of Semantics in 1897. What we conclude is that Bréal tackled these foundations about half a century before - at least - the emergence of Benveniste articles on linguistics (1966, 1970, 1974).

Key Words: Subjectivity; Enunciation; Linguistic; Emile Benveniste ; Michel Bréal.

.....

مقدّمة:

من الدّارج في دراسات لسانيّة عربيّة وغير عربيّة، عديدة فيما اطّلعنا، نسبة فكرة الذاتيّة في اللّغة إلى عالم اللسانيّات الفرنسي اميل بنڤنيست Emile Benveniste (1902-1976)، كما يشيع في تلك الدراسات الادعاء بريادة بنڤنيست في التنبيه إلى أهميّة تناول مسألة الذاتيّة ضمن دراسات اللّغة. ولهذا الأمر ما يبرّره؛ لا سيما بالنّظر في إسهامات بنڤنيست البارزة في اللّسانيّات عمومًا، وفي لسانيّات التّلفّظ على نحوٍ خاص؛ وهو ما لا يدع عندنا مجالًا للشكّ في تأثيره البالغ في جيل من اللّسانيين بعده. غير أنّ المقال الذي نترجمه هنا يسعى لتقويض فكرة ريادة بنڤنيست في تناول مسألة الذّاتيّة في اللّغة؛ إذ سنرى أنّ الأسس لذاتيّة بنڤنيست سبق أن طرحها العالم اللّغويّ ميشال بريال Michel Bréal (1832-1915) ضمن جهوده في علم الدّلالة، وقد ظهرت في مقاله الذي بين أيدينا، والذي نشره ضمن كتابه «بحث في علم الدّلالة» (Essai de Sémantique) في عام 1897. الأمر الذي نخلص منه إلى أنّ بريال تناول هذه الأسس قبل حوالي نصف قرن -على الأقل- من ظهور مقالات بنڤنيست المتعلّقة بلسانيّات التّلفّظ (1966، 1970، 1974).

ومن هنا تتأتّى أهميّة المقال الذي بين أيدينا وأهميّة نقله إلى اللّغة العربيّة. وبينما لا يتّسع المقام للتّفصيل في الأفكار التي أشرنا إليها في هذه المقدّمة الموجزة فإنّنا نوجّه القراء إلى

مقال نُشر منفصلًا درسنا فيه العلاقة بين القضايا الذاتية في هذا المقال، وما جاء في مقال بنفنيست: «الذّاتيّة في اللّغة» (مريم البادي، 2018)

ما ينبغي علينا فهمه فيما يخصّ **العنصر الذّاتيّ** هو علاقته المتجذّرة في اللّغة. إنّه المكوّن الأكثر أصالة في اللّغة من بين مكوّناتها الأُخرى.

إنْ كان صحيحًا، كما يُقال أحيانًا، أنّ اللّغةَ حلبة دراميّة حيّة، وما الكلمات سوى ممثلين في تلك الحلبة الدّراميّة، في حين تكون وظيفة المكوّن النّحويّ هي تحريك هؤلاء الممثّلين وإبراز أدوارهم، إن كان صحيحًا هذا فلنا تعضيده بالقول: إنّ مخرج هذه المسرحيّة (أو رئيس فرقة التّمثيل) غالبًا ما يتدخّل في الحدث التّمثيليّ قصد إضفاء أفكاره ومشاعره الشّخصيّة وآرائه. ولا يمثّل هذا الأمر صفة خاصّة بمسرحيّات من نمط هاملت الذي أحدث تجديدًا في صنعة المسرح، على الرّغم من إقصاء الكوميديين له، لكنّه يرتبط بكل أشكال المسرح الذي يكون فيه متفرّج ما على مسرحيّة معيّنة هو المؤلّف نفسه لتلك الأحداث المعروضة أمامه؛ فيكون حتمًا ذاتًا مرتبطة بما يشاهد. بسبب هذا التّداخل في الأدوار يكون تناول العنصر الذّاتيّ في اللّغة اقتراحًا وجيهًا ومنطقيًّا. [يشير هنا بريال إلى مسرحيّة «هاملت» كونها تعضّد فكرته في الذّاتية؛ فهي مسرحيّة خرجت على الاتجاه الأرسطيّ الذي يجعل الحدث محورًا لحركة الأحداث، ففي هاملت يكون الشخصيّة محورًا، وإليها تعزى حركة النصّ، فتكون أفكارها ودوافعها ورغباتها مركز بناء المسرحية]

يتجلّى العنصر الذّاتيّ في اللّغة في جوانب هي: (1) الكلمات أو الفقرات (2) الأشكال النّحويّة (3) والنّظام اللّغويّ العام. وهنا سأقدّم مثالًا عشوائيًّا للنموذج الأكثر شيوعًا لتجلّي هذا العنصر: «**حادث سير وقع يومَ أمس في الخط بين باريس وهافر، وعلى إثره تعطّلت حركة المرور مدّة ثلاث ساعات، غير أّنه لحسن الحظّ لم يسبب خسائر في الأرواح**». فمن البيّن أنّ التّعبير الموضّح بخطّ مائل لا يُشيرُ إلى الحادث ولا يصفه، لكنّه يعبّر عن مشاعر راوي الحدث نفسه تجاه ما يسرده من خبر. إنّ هذا التّداخل بين الخبر في سياقه الوصفيّ [أي المشهد كما هو في الواقع] والتّعبير عن مشاعر المتكلّم لا يؤدّي، على أيّة حال، إلى أيّ سوء فهم؛ فهو أمرٌ متأتٍ من طبيعة اللّغة نفسها.

تتوفّر اللّغة على جملة من **الظّروف والصّفات والتّعبيرات** التي تدلّ على أفكار الرّاوي ومشاعره. سأستدلّ في البدء هنا بالتّعبيرات التي تعكس درجة يقين الرّاوي أو درجة شكّه إزاء ما يسوقه من أَخبار. ومن أمثلة هذه التّعبيرات: لا شكّ، ربّما، من المرجّح، قطعًا. اللّغات، وبدون استثناء، تزخر بكمّ هائل من تعبيرات مثل هذه، بل كلّما توغلنا في ماضي تلك اللّغات فإنّنا سنجد المزيد من هذا النّوع من التّعبيرات. ففي الأغريقيّة، ومن خلال محاورة من محاورات أفلاطون، مثلًا، نجد من الخصائص التّعبيرية العاكسة لانطباعات المتحدّثين ونواياهم ما يعضّد صحّة فكرة أنّ اللّغات في أصولها المبكّرة كانت زاخرة بتعبيرات ذاتيّة أكثر مما نجده اليوم في تلك اللّغات. إنّ تلك التّعبيرات الذّاتيّة يمكن مقاربتها بالإيماءات الجسديّة، أو بإشارات تُنْجَزُ قصد تبليغ معانٍ معيّنة لمخاطبين محدّدين.

يفرض التّحليل المنطقيّ التّمييز بعناية بين هذين العنصرين اللّغويّين في ملفوظ ما: الوصفيّ الموضوعيّ، والذّاتيّ. فمثلًا حين أتحدّث عن مسافرٍ ما قائلًا: « ليس من شكّ أنّه سيكون قد وَصَلَ الآن» فإنّ مرجع «لا شك» لا يكون المسافر إنّما أنا - المتكلّم. لكنّ التّحليل المنطقيّ، كما يُطبّق في المدارس، غيّب الحديث عن هذا العنصر الذّاتيّ من اللّغة. إذ إنّ فكرة من قبيل أنّ الذّات بأشكالها المختلفة يمكن أنْ تأخذ بعدًا حواريًّا مع القارئ في النّصوص المكتوبة أُهمل بحثها وصنّفت ضمنًا بأنّها عناصر لغويّة بدهيّة أو هامشيّة لا تستدعي النّظر والتّحليل. وهو الحال فيما يتعلّق **بتنويعات الضّمائر** التي قد نصادفها في قصّة ما حين يتوجّه المتكلّم بالقول إلى القارئ مباشرة. ونعني بهذا أنّ القرّاء في موضع ما من القصّة يتحوّلون فجأة إلى مخاطبين؛ وبهذا فهم يمثّلون عناصر لغويّة مشاركة في القصّة، كما في حكايات لافونتين المهتم، على نحو بارز، بهذه التّنويعات في الضّمائر الشّخصيّة وذلك مثل ما نجده في: « **وعندها صاح القرويّ: أهذا جزائيّ يا ناكر المعروف؟ فالموت لكَ إذن**». وكان قد أطلق على هذه التّنويعات اسم «حشو»؛ وعدّت هامشيّة الصّلة بالسّرد شكلًا، في حين علاقتها بالمضمون جدّ متينة.

أدّى تغييب العنصر الذّاتيّ من اللّغة إلى غموض في مستوى فهم كلمات معيّنة في اللّغات القديمة. ومثل هذا أنّ من علماء اللّغة المعاصرين، من يقرّ أن ّ الكلمة اللاتينية «تمامًا» ظرفَ الحال، بينما يستنكر دراسة كلمات من قبيل «**صلب**»، «**راسخ**»، و«**مؤكّد**» على أنّها صفات دلاليّة. إذ يتساءل كيف يمكن التّوفيق بين هذه المفردات وبين تعبيرات من قبيل: انهارت المدينة كليًّا، دُمّرت المدينة تمامًا؟ وليس هذا الاستنكار إلا بسبب تغييب المكوّن الذّاتيّ الذي

ينبغي علينا هنا التّشديد على أهميّته في دراسة اللّغة. فنحن نقول مثلًا: قطعًا أنا خاسرٌ. أو في الألمانيّة: أنا خسرت بالتّأكيد، وهما مثالان لا يوضّحان التزامًا صارمًا على مستوى المفردات وترتيب مكوّنات الجمل، لكنّهما في خلاصة الأمر يتوفّران على محمولات ذاتيّة؛ وذلك ليس بفضل ضمير المتكلّم فقط، إنّما بسبب خصوصيّة مفردتي «قطعًا» و«بالتأكيد» في التعبيرين.

الأمر نفسه ينطبق على ظرف الحال في الألمانيّة القديمة (fast) التي كانت تعني في الأصل الثّبات والرّسوخ، بينما صار يقابلها الآن في الإنجليزيّة (almost)- بمعنى تقريبًا. ولتوضيح هذا التحوّل فقد كان من المعتاد أن نقول مثلًا: **vasteruofen** قصد التّعبير عن: **النّداء بصوت عال**. و نقول: **vastezwîveln** لـ: **إبداء قوّة الشّكّ**.كما نقول: **لقد صليت منذ أمد تقريبًا**. كلّ هذه التّعبيرات لو نظرنا فيها من منظور تعاملنا مع الكلمة: تقريبًا (**almost**) في الإنجليزيّة الآن فستعني: **أنا أؤمن إيمانًا راسخًا بـ...**؛ لتدلّ على القطعيّة. والأمر نفسه فيما يتعلّق بكلمة (ungefähr)، في الألمانيّة، وتعني: «**على وجه التّقريب/أو: من المحتمل**».

وعلى هذا، ففي اللاتينيّة كلمة «**جازم**» تعني «**تقريبًا**» **(ربما/ من المحتمل)**، هذا على الرّغم من تضمّن كلمة «**جازم**» معنى التّأكّد من الشّيء والقطع فيه، في مقابل تضمن الكلمة «**تقريبًا**» معنى نسبيّة معرفة المتكلّم بالشّيء ونسبية قطعه فيه. وعلى هذا، فعلينا إعادة النّظر في تعبيرات من قبيل: «أعتقد جازمًا»، «أعتقد نسبيًّا» بصفتها عناصر ذاتيّة.

نجد شبكة اللّغة مطرّزة [embroidered] أبدًا بمثل هذه المفردات وبمثل هذه التّعبيرات. وإن كان لنا أن نخلص إلى استنتاج منطقيّ، فإنّ تحوّل معاني مفردات تدريجيًّا، أو قرن مفردات بأخرى يخلق بُعدًا ذاتيًّا في اللّغة. فمن خلال ما أوردناه من أمثلة سابقة؛ فإنّ اقتران مثل هذه المفردات بمفردات معيّنة يخرجها من معانيها الأصليّة إلى معان جديدة ذات أبعاد لغويّة ذاتيّة. غير أنّ البُعد الذّاتيّ في اللّغة يتجاوز هذه الفكرة. فمسألة المزاوجة بين عنصرين لغويين، أو بين مفردتين، يعدّ جزءًا أصيلًا من علم القواعد النّحويّة والصّرفيّة، بل أنّ علم القواعد يستمدّ فلسفته من هذه المزاوجة.

يعدُّ **الفعل** أنموذجًا بارزًا على الكلمات التي تشكّل بعدًا ذاتيًّا في اللّغة من خلال الاقتران اللُّغويّ. وهنا بيّن للقارئ أنّني لا أعمّم هذا الحكم إنما أشير تحديدًا إلى أفعال الجهات (moods). لقد أدرك علماء اللّغة الأغريق هذا الأمر حين قالوا بأنّ **أفعال الجهات** تمثّل مرايا

عاكسة لأرواح المتكلّمين؛ إذ تُظهر مواقفهم وانفعالاتهم إزاء ما يعبّرون عنه من قضايا وما يصفونه من موضوعات. وفي حقيقة الأمر، فإنّ تعبيرًا من قبيل يتمنى لو أنّ يحتوي على مكوّنين متميّزين للغاية: **المكوّن اللّغويّ** الذي مصدره المفردة نفسها، ومكوّن آخر مصدره المتكلّم نفسه وهي فكرة « **الرّغبة**». هذان المكوّنان تداخلا مع بعضهما فشكّلا المعنى الكلّيّ للجهة. كلمة بسيطة وعابرة نجدها في هوميروس: « **قد يموت**»، فبالإضافة إلى التّعبير عن «**حدث الموت**»، لكن من خلال هذا التّركيب فإنّ المتكلّم ينقل موقفه إزاء هذا الحدث. وفي مثل هذا التّعبير يكمن جوهر تعبيرات متنوعة في اللّغة ومنها تعبيرات التّمنّي.

لا تتّخذ جهة التّمنّي النّمط هذا نفسه دومًا، فالمكوّن الذّاتيّ للتمني متحقّق كذلك من خلال فكرة الحدث المتأتيّ من الجهة المنطقيّة العميقة للفعل والتي لا تظهر على البنية السّطحيّة من التّعبير، صحيح أنّ المقاربة النّحويّة لمثل هذه الجهات أدّت في النّهاية إلى معنى التّمنّي. ووفقًا لأحدث الدّراسات اللّغويّة المرتبطة بالتمني في الفيدا Vedas [السِّفر المقدّس للدّيانة الهندوسيّة، وهو كتاب من تراتيل وترانيم تنشد في تكريم الآلهة] فإنّ التمني، كما يبدو، كان الصيغة الخاصة بأفعال جهويّة معيّنة دون غيرها في حين كان الشّرط ملازمًا لأُخرى، رغم عدم وجود تمييز حاسم بينها في تلك اللّغة. وفرة النّماذج اللغوية هذه تدعو إلى وجوب النّظر في العنصر الذّاتيّ في تلك التّراكيب، وفي اللّغة عمومًا. فاللّغات التي تتضمّن جهتي الأمر والشّرط معًا على نحو بارز ومختلف، كما هو الحال في اليونانيّة، حاولت التّمييز بينهما كما حاولت تقنينهما. وعلى كلّ فإنّ جلّ اللّغات، في حقيقة الأمر، زاخرة وثريّة بالكلمات والتّراكيب الذّاتيّة التي صهرت جهتي التّمني والشّرط في قالب جهويّ واحد دون عبء التّمييز بينهما.

فالصيغة المستقبليّة للفعل في اللّغة اللاتينيّة يمكن دراستها بالنّظر في جهتي التّمنّي والشّرط؛ فهي قريب منهما لدرجة أنْ يحدث اللّبس بينهما أحيانًا. فأمثلة من قبيل: اختيارًا (Inveniam)، بمشيئة الفرد/ برغبة المرء (experiar are)، وفق إرادته/حسب الرّغبة (ad libitum) يمكن أن تدلّ في اللاتينيّة على أنّ الفعل سيتحقّق مستقبلًا، وفي الوقت نفسه يمكن أن تدلّ على جهة الشّرط. وفي هذا وجهة نظر منطقيّة حول تنوّع طبيعة هذه الأَفعال واختلاف استخداماتها. ولتجلية الأمر، فإنّ جلّ أنشطتنا اللّغويّة إمّا أنْ تكون تعبيرات عن رغباتنا أو تكون إفصاحات عن شكوكنا، كما يمكننا الانتهاء إلى أنّ هذا التّداخل بين معاني بعض الجهات والكلمات والتّراكيب مربك لكنّه موجود بصفته مكوّنًا مبرهنًا للطبيعة الذّاتيّة في اللّغة. أمثلة

عديدة توضّح أن لا حدود دقيقة بين مستقبل الفعل وجهة الشّرط في بعض اللّغات. وبالتّالي، يحدث أن يغيب الفرق بين تركيب الجمل وتنوّعاتها وتعبيرات الجهات من اهتمام بعض التّاريخانيين من علماء اللّغة. هؤلاء الذين نادوا، في أيامنا، بفكرة غريبة إذ اعتبروا التّمنّي **جهة غير الحقيقة (the mood of the unreal)**، وهي فكرة مستقاة من بعض علماء اللغة القدماء الذين فيما يبدو أنّهم كانوا مولعين بعلم الجبر. غير أنّ دراسة اللّغة في تلك المرحلة كانت تحملُ طابعًا متعاليًا أكثر من أهدافها العمليّة.

نؤكّد هنا أنّ المكوّن الذّاتيّ لم يتلاشَ من قواعد لغاتنا الحديثة رغم التّطوّر والتّغيّرات التي طرأت على تلك اللّغات. ففي الفرنسيّة مثلًا، وقصد التّعبير عن التّمنّي - تستخدم صيغة الشّرط: **الله يسمعك! - يمكنك النّجاح!**. ولتوضيح استخدام الصّيغة الشّرطيّة في التّمنّي في تعبيرات كهذا قام بعض المنطقيين بتقريبها بالتّعبير (بعلامة القطع [المفردة]: ـ) على نحو: **أرجو أن يسمعك الله - أتمنى أن تنجح!** وفي حقيقة الأمر، تخلّت الفرنسيّة نوعًا ما عن هذا العنصر الذّاتيّ من اللّغة، إذ أوجدت لها أشكالًا جديدة للتّعبير عنه. ومن هذا، أنّها إذا قصدت التّعبير عن حدثٍ لغويّ مع إبداء نوعٍ من التّحفّظ إزاء القضيّة المعبّر عنها، فإنّها ستلجأ إلى معادلات (تقسيمات) من قبيل: **هل تعتقد ذلك... لذا فسوف يؤدّي اعتقادُك / عدم اعتقادك إلى هذا الاستنتاج**. في هذه التّعبيرات، ليس الشّرط هو ما يعبّر عنه الفعل اللّغويّ، إنّما يعبّر عن حقيقة يمكن اعتبارها غير مؤكّدة وغير محسومة. لقد ورث الشّرط، كما هو شأن اللّغة الحديثة، بعضًا من قواعد الشّرط واستخداماته الكلاسيكيّة لا سيّما تلك القواعد والاستخدامات المتعلّقة بجهتي الشّرط والتّمنّي.

يشبه الخطاب غير المباشر Indirect Speech، بقواعده المتنوّعة والمعقّدة، نقل دفّة الحدث اللّغويّ من ذاتٍ إلى أُخرى. فما توضّحه اللّغة المكتوبة اليوم بواسطة علامتي الاقتباس [«»] من أنّ المكتوب هو تحوّل في مستوى الكلام، فإنّ اللّغة المنطوقة كانت تستخدم تشكيلات متنوّعة من الأفعال والتّراكيب للدّلالة على هذه المستويات المختلفة. وفي هذا السياق، فإنّ جهتيْ الشّرط والتّمنيّ تكتسب شرعيّة وجودهما في اللّغة وتداخلهما؛ إذ إنّ مستوى من الشّك قد يتداخل في ثنايا الخطاب المنقول كلّه.

لا يزال من الواجب علينا النّظر في نوع آخر من الجهات التي يظهر فيها العنصر الذّاتيّ على نحو أكثر جلاءً، ونعني بهذا: الجهة الأساسيّة (**The Imperative Mood**). [نفرّق بين الجهة الأساسية والجهات الوجوبيّة (Deontic Modalities). إذ ينطلق معنى الجهة الأساسيّة من المحمول المباشر للفعل بوجوب تمثّل المتلفظ المشارك حدثًا خطابيًّا معينًا، أو وجوب كفّه عن القيام بفعل معين. في حين تكون الجهة الوجوبيّة تصوّرًا للكيفيّة التي يجب أن يكون العالم الخارجيّ عليها وفق معايير المتكلّم وقيمه الذّاتيّة] فما يميّز الجهة الأساسيّة هي أنّ مضمون الفعل اللازم (الواجب) مطابق لإرادة المتكلّم. صحيح أنّه من الصعب تبيّن في بعض الجهات الأساسيّة، المكتوبة خاصّة، عمّا يبرهن على هذه الإرادة ويبرزها. ذلك لأنّ عناصر قد تبقى ملازمة للمنطوق وخاصّة به دون المكتوب، ومنها: نغمة الصّوت، وما تُظهره ملامح المتكلّم، ولغة جسده؛ [يستخدم بريال هنا مصطلح Countenance وهو مصطلح في الأصل الفرنسيّ يدلّ على السّلوك behavior غير أنّ استخدامه تطوّر ليعبّر عن ملامح الوجه أو الوجه نفسه] إذ تتعاضد كلّ هذه العناصر في نهاية الأمر لتشكيل معنى الجهة. وفي الحقيقة، علينا ألّا نتجاهل هذه العناصر، إذ رغم أنّها لا تتجلّى من خلال اللّغة المكتوبة، لكنّها تظلّ جزءًا جوهريًّا من اللّغة.

تتشارك الجهة الأساسيّة بعض أشكالها مع الجهة الدّلاليّة **Indicative mood**. غير أنّ هذا التّشارك بين الجهتين قد لا يعني بالضّرورة أنّ الجهة الأساسية قد استعارت شكلها ووظيفتها من الجهة الدّلاليّة. بل أنا أميل إلى الاعتقاد بأنّ العكس حدث تمامًا؛ أي أنّ الجهة الأساسيّة سابقة على الجهة الدّلاليّة، وبتعبير أكثر وضوحًا: إنّ الجهة الدّلاليّة مستقاة من الجهة الأساسيّة ومتحوّلة عنها. فمنطقيًّا، قد تكون أمثلة من قبيل هذه الأشكال المختصرة: تعال!، اعطِ!، قف!، تكون أعرق في اللّغة من أيّ شكلٍ من أشكال تصريفات الأفعال أو مختلف أنواع الاقترانات اللّغويّة الأخرى.

لقد سبق أن ألمحنا إلى العلاقة المتبادلة والمعقّدة بين الضّمائر الشّخصيّة في اللّغة. ومن هذا أنّ السنسكريتيّة والزّنديّة تبرزان أشكالًا لغويّة تُظهر هذه العلاقة بين الضّمائر على نحو مباشر؛ وأعني هنا أنّ الضّمير الأوّل المفرد، على نحو «لأتوسّل ...»، و«لأقدّم قدّاسًا...» يبدو لنا هنا وكأنّ المتكلّم بالضّمير الأوّل يوجّه أوامر لنفسه بينما هو يعتزم مشاركة الفعل مع مخاطب. وحريّ بالقول، إنّ طرق التّعبير عن الضّمير المتكلّم المفرد متنوّعة بين اللّغات كما أنّها معقّدة. فالفرنسيّة على سبيل المثال قد توظّف صيغة الجمع عند الحديث عن المتكلّم نفسه.

ومثل تنويعات استخدام الضّمائر أيضًا ما نجده في رعويّات فيرجل؛ إذ يتخاطب المتكلّمون فيما بينهم ليس فقط باستخدام ضمير المخاطَب عند التوجّه بالقول إلى بعضهم بعضًا، إنّما بذكر اسم المخاطَب مباشرة في كلّ مرّة إضافة إلى ما يقوم به ضمير المخاطب من وظيفة في الحوار. [وهي سمة جليّة في أناشيد الرّعاة المذكورة جميعها. ينظر مثلًا: الأنشودة الأولى: «تيتروس» التي دارت بين ميليبويوس وتيتيروس؛ ففيها سنجد المتحاورَيْن يتوجّهان إلى بعضهما بالحديث لا باستخدام الضّمير «أنتَ» فحسب، إنّما أيضًا باستخدام الاسم. فرجيل. ينظر: فرجيل، أناشيد الرعاة. ص-ص40 - 46]

يمكننا الآن أن نفهم لِمَ صعب منح الفعل اللّغويّ تعريفًا محدّدًا وواضحًا في الدّراسات المتأخرة. نعم، نجح علماء اللّغة القدماء، إلى حدّ ما، في وضع تعريف للفعل أكثر مما بدا في مصنّفات علماء اللّغة المتأخّرين. فالمعاصرون، يعرّفون الفعل بأنّه «**كلمة تعبّر عن حالة أو عن حدث**»؛ وهو تعريف يتجاهل جزءًا كبيرًا من مكوّناته - بل إنّه الجزء الأكبر والأكثر تميّزًا وأهميّة.

إذا ما تجاوزنا **الموجّهات** و**أزمنة الفعل** إلى النّظر في فواعل الأفعال، فإننا سنجد عناصر أكثر مدعاة للنّظر فيها بصفتها عناصر ذاتيّة. فالإنسان، أبعد ما يكون عن النّظر إلى العالم من وجهة نظر المراقب غير المهتمّ [أو نظرة الموضوعيّ]، بل على العكس من ذلك، فإنّا نجد المرء، ومن خلال اللّغة، يخصّص مكانًا محدّدًا لذاته فيكون ذاك المكان مركز الذّات في اللّغة. ومن بين **الضّمائر الثّلاثة**، فإنّنا نجد واحدًا منها (اتّفق على تسميته بالضّمير الأوّل) يحمل خصوصيّة معيّنة إذ يكون مركزًا للفعل اللّغويّ. وبهذا فهو الضّمير الذي يعيّن لنفسه وجودًا محدّدًا، مخصّصًا، من العالم. أمّا فيما يخصّ ضمير الثّاني [ضمير المخاطب: أَنْتَ] فإنّ لا كينونة له أصلًا عدا تلك التي يكتسبها من كونه الشخص الذي يتوجه له الأنا القول؛ وبالتّالي فهو موجودٌ بفعل الضّمير الأوّل ولا وجود له دون هذا. وننتهي إلى القول، إذن، بأنّ الضّمير الثّالث هو الضّمير الوحيد الذي يمكن أن يمثّل الجانب الموضوعيّ للّغة.

هنا أيضًا يحقّ لنا افتراض أنّ **العنصر الذاتيّ** هو الأسبق، والأكثر أصالة، من بين عناصر اللّغة جميعًا. علماء اللّغة ممن اشتغلوا على تحليل الانحرافات اللّفظيّة [أو تغيّرات

الفعل] كان منطقيًّا أن يتوصّلوا إلى الخلاصة الآتية: بينما يسهل تحليل الضّمير الثّالث في اللّغة، فإنّ الضّميرين الأوّل والثّاني يتيحان جلّ معضلات التّحليل اللّغويّ وأكثرها تعقيدًا.

ملاحظة أخرى في السّياق نفسه يمكن استخلاصها فيما يتعلّق بالضّمائر: الضّمير **أنا** لم يكن وحده كافيًا للإشارة إلى ذات الفعل: إذ وُجِدت هناك حاجة أيضًا إلى ضمير خاصّ يعبّر عن مشاركة **الأنا** في فعل جماعيّ. وهذا بالضّبط معنى الضّمير **نحن** الذي يدلّ على مجموعة متشاركة في الفعل من قبيل: أنا وهم، أنا وأنتَ. غير أنّ الأمر لا ينتهي هنا أيضًا: فلغات عديدة تستعين برقم معيّن للإشارة إلى أنّ الضّمير أنا يتحمّل نصف مسؤوليّة الحدث اللّغويّ الذي تشارك فيه شخصان. هذا هو أصل الرّقم المزدوج Dual number»، في تصريف الأفعال اللّغويّة [أي صيغة المثنّى في اللّغة العربيّة]

كنّا نسعى إلى النّظر من زاوية وجهة نظر المتكلّم المتأتّية من خلال لغته. إنّ الغاية من الكلام ليست وصف العالم، ولا الوصف المحض المجرّد من ذات المتكلّمين؛ أي الموضوعيّ. فالوظيفة الأساسيّة للّغة هي التّعبير عن رغبة ما، أو للدّلالة على حيازة موقّع محدّد بين النّاس أو بين الأشياء في هذا العالم. وفي حقيقة الأمر، فإنّ اللّغة بالنّسبة إلى بعض الأشخاص ما زالت وظيفتها مقتصرة على هذه الغايات. وننتهي إلى القول بأنّنا إذا ما رجعنا مرحلة، أو أكثر، نحو الوراء للنّظر في بدايات اللّغة البشريّة وقاربناها بلغة الحيوان لوجدنا أنّ لغة الإنسان فقط من تختصّ بهذا العنصر الذّاتيّ الذي يعدّ الجزء الأكثر جوهريّة في اللّغة.

وعلى هذا، فإنّ اهتمامنا بالعنصر الذّاتيّ في اللّغة لا يعني اهتماما بشيء هامشيّ، أو بعنصرٍ زائد، إنّما على العكس من ذلك تمامًا، فهو اهتمام بمكوّن جوهريّ وجزء أصيل من اللّغة يمكن أن يكون مشروعًا للبحث وطريقًا لتوسعة النّظر فيه.

المصادر والمراجع:

- هذا المقال مأخوذ من:

Bréal, M. (1900). Semantics: Studies in the science of meaning. Trans. Henry Cust. *New York: Henry Hol. p.p.229-238.*

- [...] بين معقوفتين من المترجمة ما لم يوضّح بخلاف ذلك.

أولا: المراجع العربية

البادي، م. (2018). لسانيات التّلفّظ بين ميشال بريال وإميل بنفنيست، جامعة عين شمس، القاهرة، ع.123، أكتوبر 2018، ص.12- 30. مجلّة فكر وإبداع (محكّمة)، جامعة عين شمس، القاهرة، (123)، 12-30.

باديس، ن. (2018). الذاتية في النظام اللغوي. تونس: الدار التونسية للكتاب.

عبدالفتاح، ع. (1999). أعلام في الأدب العالمي. القاهرة: مركز الحضارة العربيّة. ص9-10.

فرجيل، ب. (2015). أناشيد الرعاة. تر. أمين سلامة. بيروت: دار الفكر العربي.

ثانيا: المراجع الأجنبية

Bréal, M. (1900). *Semantics: Studies in the science of meaning. (Trans. Henry Cust)*. New York: Henry Hol.

Palmer, F. R. (2014). *Modality and the English modals*. Routledge, p 7.

Stenius, E. (1969). Mood and Language-Game. In *Philosophical logic*. Springer, Dordrech, pp 251-271.

Rask, R. (1834). *Remarks on the Zend Language and the Zendavesta*. JL Cox and Son. pp 2-8